أثر الدلالة المعجمية للألفاظ في بيان المعنى القرآني

الأستاذ الدكتور
حاكم حبيب الكريطي
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

أثر الدلالة المعجمية للألفاظ في بيان المعنى القرآني

الأستاذ الدكتور
حاكم حبيب الكريطي
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

كلمة بين يدي البحث

يسعى هذا البحث إلى استثمار دلالات الاستعمال الاجتماعي للألفاظ (المعجم) بغية الوصول إلى بيان المعنى القرآني، من خلال الوقوف على معاني المفردات المركزية في الآيات القرآنية، والنظر إلى تلك المعاني على وفق السياق الذي ترد فيه اللفظة، ليس مرةً واحدةً، وإنما بعدد المعاني التي يقدمها المعجم للفظة الواحدة، فيصبح للسياق دلالات أخرى لا تقف عند المعنى الأظهر الذي قارب بين المفسرين أو أجمعوا عليه في تفسيراتهم وإنما يتجاوزه إلى معانٍ اضافية قد لا تقل أهمية عن المعنى المشار إليه. ومن هنا يمكننا أن نتأول المعنى على وفق ذلك كلّه، وبأكثر من وجه، لأن القرآن الكريم (حمّال ذو وجوه) على وفق وصف الإمام علي عليه السلام، وهذا وجه من وجوه التدبر المأمور به في القرآن الكريم، والذي يغرينا بهذا، إن اللفظة ومهما اختلفت السياقات التي ترد فيها، تبقى وفية لأصلها اللغوي الذي يبسطه الاستعمال الاجتماعي.

إن هذا المنهج الذي نتبنّاه هنا، يشبه التفسير اللغوي للقرآن الكريم من خلال ما جاء في كتب الأشباه والنظائر وغريب القرآن - ولكنّه ليس هو، لأن الكتب المهتمة بالتفسير اللغوي تأتي بالمفردة وتأخذ ما تؤديه في أكثر من سياق، في حين اننا نسعى هنا إلى تأويل المعنى على وفق المعاني المتعددة للمفردة الواحدة في السياق الواحد، وهذا يعني اننا سنستنبط أكثر من معنى في الآية الواحدة من دون جور في التوجيه، أو القول بالرأي، فهذا منهج منهي عنه. ولكنّ اللغة تسمح لنا

بهذا، بل تدفعنا اليه، وتغرينا به، لأن القرآن عربي، ونزل بلغة العرب وأساليبهم في الكلام.

وقد أخذ البحث بعض الآيات القرآنية، ونظر فيها على وفق هذا المنهج، فتوصل إلى معانٍ لها قيمة معرفية كبيرة - فيما نعتقد -، ووجدنا شواهد وقف أمامها اللغويون حيارى بين ما تبيحه اللغة وما لم يقل به المفسرون على النحو الذي أشرنا إليه. ولو تحرر اللغويون من سلطة (السلف) لقالوا بهذا، وكشفوا لنا عن معانٍ كثيرة من النص القرآني.

أكّد العلماء العرب على أهمية اكتمال معرفة من يريد أنْ ينظر في النصّ القرآني مفسّراً، واكتمال المعرفة يعني هنا: الاحاطة التامة بعلوم القرآن الكريم التي وصلت عند السيوطي إلى ثمانين علماً[١]، وتأتي علوم العربية بمستوياتها كلّها النحوية والصرفية والدلالية والمعجمية في صدارة تلك العلوم. وتقديمنا هنا لعلوم اللغة العربية، نابعٌ من انّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مُبين[٢]. وعلى من يريد أنْ يتصدّى للنظر فيه أن يكون ملمّاً بلغة العرب ومستوعباً لعلومها، لا من حيث القواعد والاعراب... حسب، وإنّما من حيث انّ اللغة العربية هي الوسيلة التي حملت القرآن الكريم المعجز وهي مظهر الاعجاز الأول - كما قرّر ذلك عبد القاهر الجرجاني، وهو يضع كتابيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة[٣].

إنّ المعرفة التامة باللغة العربية، تتيح للنظر في النص القرآني قدرة على تدبّره والنظر فيه، نظرة متأنية، تبحث خلف المعنى الظاهر، عن معان أخرى، لأنّ ((لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حدّا ومطلعاً))[٤]، وللقرآن الكريم - أيضاً - وجوه محتملة، نبّه الإمام علي عليه السلام عبد الله بن عباس، إليها حينما أرسله للاحتجاج على الخوارج في (حروراء)، قائلاً: ((لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال ذو وجوه))[٥].

ومن هنا يأتي هذا البحث ليفتح باباً، ينطلق من الدلالات المعجمية للألفاظ

بوصفها أصلاً معرفياً، يمكن الركون إليه، لأنّه ينفتح على معانٍ مُتنوعة، ربما تشكّل بعض الوجوه التي يحملها القرآن، ولكنها لا تظهر إلّا لمن قوي نظره ((واتسع مجاله في الفكر وتدبّره، وامتد باعه، ورقّت طباعه، وامتدّ في فنون الأدب وأحاط بلغة العرب))[٦].

وعلى الرغم من إنّ أيّ بحث علمي يتصل بدلالات الألفاظ، لا يستقيم إلّا بالرجوع إلى الاستعمال الاجتماعي لتلك الألفاظ (المعجم)، فإنّ أغلب الباحثين - في القديم والحديث - يأخذون من المعاني المعجمية في بحوثهم ما يَرونه مناسباً للسياق الذي يبحثون فيه، ثم يُغفلون المعاني الأخرى، التي توجّه من قريب أحياناً ومن بعيد أحياناً أخرى، مسارات فهم المدرك للنصوص التي أمامه.

إن العودة إلى المعجم من أجل تصوّر بعض المعاني القرآنية، تَعْني العودة إلى خزين معرفي، يوسّع من مدارك الناظر في النّص، ويكسبه مرونة معرفية تمكّنه ربما - من التقاط بعض المعاني التي لم يلتفت إليها غيره، من خلال التدبّر في الصياغات اللغوية على وفق المعاني التي تنطوي عليها الألفاظ، بحسب استعمالاتها الاجتماعية، والنّص القرآني نصّ للعصور كلّها وللأجيال كلّها، فهو ((لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه))[٧]، ولعلّ العودة إلى المعاني المعجمية، تلتقط لنا بعض تلك العجائب، وتضع لنا منهجاً لما يمكن أن نصطلح على تسميته بـ (التفسير المعجمي للقرآن الكريم)[٨].

عاد المفسّرون كثيراً إلى الشعر العربي القديم ليتبيّنوا من خلاله معاني القرآن الكريم، منذ أنْ قال عبد الله بن عباس مقولته المشهورة: ((اذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر))[٩]، ولكنّهم أخذوا من ذلك الشعر معاني الألفاظ الغريبة بعد أنْ جرّدوها من السياق بوصفها شيئاً معجمياً، واكتفوا في الغالب بمعنى واحد يتناغم مع السياق القرآني، ثم أهملوا المعاني الأخرى. فابتعدوا بذلك عن فاعلية السياقات المتنوعة في النص القرآني، التي تشكّل -

حقاً - بعضاً من عجائب القرآن الكريم. وهذا ما لا يُفهم من ظاهر اللفظ، لأنّ ظاهر اللفظ يقدّم معنى واحداً، أما المعاني الأخر فهو ما يلتقط من السياق بدلالة الألفاظ، بوصفها تحمل معاني معجمية أخر. تُيسّر لنا، للمدرك، للمتدبّر، للمتأمل الوقوف على ما يمكن أنْ يفرزه السياق من معانٍ. يقول عبد القاهر الجرجاني عن هذا: ((نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أنْ تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذاك المعنى إلى معنى آخر))[١٠].

إنّ ما نتوخاه هنا، يدعونا إلى الحذر الشديد من الانزلاق إلى القول بالرأي المنهي عنه بالحديث النبوي الشريف ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار))[١١]. ويدعونا في الوقت نفسه إلى استثمار طاقات اللغة العربية عبر نشاط ذهني خلّاق، يوجّهنا إلى التأمل العميق في معاني الألفاظ، مقروناً بالنظر العميق في السياقات التي تحتضن تلك الألفاظ.

واستناداً إلى هذا الأمر فإن المعنى القرآني الذي يمكن أن يستنبط، قد لا يكون متطابقاً مع رؤية المفسرين، لأن التفسير يستعين بالروايات أولاً، ثم يلتفت إلى اللغة بعد ذلك - في حدود معنى واحدٍ يتطلبه السياق، أما ما نريده هنا من المعنى. فهو الاستعانة بالمعجم أولاً، ثم البحث في الروايات، إن وجدنا فيها سنداً - للوصول إلى الدلالات التفسيرية.

ولا بد من الاشارة هنا إلى انّ الراغب الاصفهاني في كتابه ((مفردات غريب القرآن)) نحا هذا المنحى. ولكنّه فسّر المفردة بأحد معانيها المعجمية الذي رآه هو يتناغم مع السياق القرآني، أما بقية المعاني فأغفلها، وان ذكرها فذكره لها ذكر معجمي فقط. وليس ذكراً معجمياً تفسيرياً، وهذا هو الفرق الذي نعدّه يشكل علامة مائزة لهذا المنهج الذي نتبنّاه هنا، وسنأخذ في هذا البحث الجذر (قرأ) وما يتفرع عنه من مواد، ثم نستفتي الاستعمال الاجتماعي لهذا الجذر، للوقوف على

المعاني التي تتفرع منه. وبعد ذلك نذهب إلى النص القرآني متابعين ما ورد فيه من معاني هذا الجذر. ونعرض ذلك كلّه على المعجم وعلى آراء المفسرين وعلى الروايات، لنصل بعد ذلك إلى ما توخيناه، وهو الوقوف على معانٍ يقدمها لنا النص، على وفق هذا المنهج. والله المستعان.

القراءة في المعجم(١٢):

١- القرآن: التنزيل العزيز، ومعنى القرآن معنى الجمع، وسُمِيَّ قرآناً لأنه يجمع السُورَ فَيضمُّها... ولأنَّه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض.

٢- قرأتُ الشيء قرآناً: ضَمَمْتُ بعضه إلى بعض ومعنى قرأتُ القرآن: لفظتُ به مجموعاً، أي ألقيته.

٣- قرأ عليه السلام: يقرؤه عليه، وأقرأه إياه: أبلغه، وكأنّه حين يُبلّغه سلامه، يحمله على أنْ يقرأ السلام ويردَّه.

٤- قرأتُ الكتابة قراءة وقرآناً، ومني سُميّ القرآن.

٥- أقراء الشعر: قوافيه التي يختم بها.

٦- القرء: اجتماع الدم في الرحم، وذلك إنّما يكون في الطهر.

٧- تقرّأ: تفقه، وتقرّأ: تنسَّكَ، ويُقال: قرأتُ: أيْ صرتُ قارئاً ناسكاً.

يجدر بنا الآن - بعد هذا العرض للاستعمال الاجتماعي للجذر (قرأ)، أن نجري مقاربة معرفية، نحاول استنباطها من هذا الاستعمال لنؤسس لرؤية، توسّع مفهوم القراءة، ولا تقف به عند الحدود التي أقرّها المفسرون في توجيهاتهم للنص القرآني. والتي ظلّت تدور في نطاق إدراك معنى المكتوب، وتكرير قراءة المقروء لتدبر معانيه، ولم تخرج عن هذا النطاق التطبيقي. بل ظلّت متمسكة به حتى صار ظاهر اللفظ وتلاؤمه مع السياق بغية المفسّرين، وإن اختلفوا، فالاختلاف

لا يتعدى بعض المسائل التي تتعلق بتوجيه الأعراب بحسب ما يقتضيه علم النحو، وبتوجيه القراءات استناداً إلى ما أخذه علماء اللغة عن العرب.

أما استقدام المعاني المعجميّة كلّها إلى السياق، والتقاط اللفظ الآخر الأقل إتساقاً، ثم النظر في النص مرة أخرى. فهذا لم يُعبأ به في الغالب. ومن هنا سيتكشف لنا ما نريده بمقاربتنا المعرفية، فنقول: -

أولاً: إن القراءة الأولية لاستعمالات الجذر (قرأ) التي مرّ ذكرها، تكشف لنا ابتداء نتيجة مفادها، إنّ هذا الجذر يحتضن معنى واسعاً هو معنى (الجمع)، ويتشكل هذا المعنى من المعاني الجزئية التي خرج إليها الجذر (قرأ)، والتي ظلّت متعالقة مع الأصل الذي تفرعت عنه.

ثانياً: إنّ (قرأ) في بعض وجوهه، فعل ذهني، وممارسته تستدعي نشاطاً ذهنياً يستهدف استثمار قدرات اللغة الدلالية والتوليدية والتصويرية...، وهي تقلّب (قرأ) وفروعه في السياقات المختلفة، وهذا النشاط لا ينهض به إلّا الانسان، الذي يُحسن التفكير باللغة العربية، بعد أن استوعب علومها - مرت الإشارة إليها -، وتملّك القدرة على تجاوز المعاني الظاهرة الواضحة إلى المعاني العميقة، لأنّ (قرأت الكتابة قراءة وقرآناً) تعني: جمعت معاني الألفاظ إلى بعضها وفهمتُ ما فيها، ولا يمكن أن تفهم الكتابة إلّا بجمع الألفاظ، وادراك معنى التركيب، وهذا يتأتى للقارئ إلّا اذا توقّف عن الانشغال بغير النّص الذي بين يديه، حتى يكون قادراً على جمع المعاني المختبئة خلف الألفاظ. فصارت القراءة جمعاً، وصار القارئ جامعاً، وجمع القراءة هنا جمع خلّاق، ومن هنا تتبيّن لنا صعوبة القراءة التي نعتدّ بها. لأنها قراءة كشف وبيان وتدبّر وتأمّل، وهذا هو المراد بالجمع الذي توحّدت عليه المعاني المعجمية لـ (قرأ).

ثالثاً: أما اقراء الشعر، فهي قوافيه التي يجتمع فيها الزخم الايقاعي للبيت من خلال تشكيلها، على وفق رؤية الخليل بن أحمد الفراهيدي[١٣]، إذ يكون حرف الروي، الصوت الأعلى والأظهر في موسيقى البيت الشعري، والمجمع الذي تنتهي إليه الأصوات اللغوية، وهي تتآزر فيما بينها، مذ بدأت مسيرها من أول لفظة في البيت. ومن هنا قيل إن الشاعر المطبوع، من أراك في صدر بيته قافيته[١٤]، بمعنى إنّه يَعد المتلقي، ان الاجتماع سيكون في اقراء البيت (أي قافيته، وما أراك منه في صدر البيت، هو مشوّق يستعمله من أجل لفت النظر إلى اجتماع القافية، تلك الفاصلة التي يستكمل بها الشاعر معنى بيته، والتي تجسّد قدرته على استثمار التأثير السمعي لشعره في نفس المتلقي ومشاعره. وسيكون لهذهِ القضية شأن فيما يأتي من صفحات البحث.

رابعاً: ينطوي الجذر (قرأ) - أيضاً - على معانٍ تحصل للإنسان من دون أن يكون له يدٌ في ذلك، ولكنها تبقى محاطة بدائرة (الجمع)، فالقرء: اجتماع الدم في رحم المرأة وذلك يكون في أيام طهرها، وهو يعني استعداداً لتشكّل جديد، (لجمع جديد) للحمل في الرحم. وعلى الرغم من إنّ الانسان لا دخل له في هذا الضرب من (القراءة) فإنّه الميدان الذي يستوعبها، وتجري فصولها فيه. فهو يتحسَّسُها، ويخضع لتأثيراتها، ويستجيب لها. ولكن لا سيطرة له عليها، وسنجد نظيراً لهذا، في الصفحات اللاحقة.

إنّ هذه القراءات الأربعة التي اقترضناها من الاستعمال الاجتماعي للفظة (قرأ)، وما يتشكل منها، ستكون سنداً لنا، نتكأ عليه، حينما شرع بعد قليل بقراءة الجذر في الاستعمال القرآني له، ثم نوازن ما نُريده وما قدّمه لنا أصحاب التفسير.

القراءة في الاصطلاح القرآني:-

ورد الجذر (قرأ) وما يتفرع منه في إثنتي عشرة آية في القرآن الكريم. وقد تضمّنت تلك الآيات أنماطاً متنوعة من القراءة، قدمتها لنا القراءة التمهيدية الأولى للآيات المباركات بمؤازرة القراءة المعجمية السابقة، لمفهوم القراءة الرحب وعلى وفق التسويغ المنهجي الذي تبنيناه. ويمكننا أن نحمل ما نريده على النحو الآتي:-

١- النمط الأول من تلك القراءات، تمثله آيات سورة العلق في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١]، فـ (اقرأ) الأولى في الآيات المباركات، أمرٌ من الله تعالى للنبي ﷺ بقراءة الخلق عامة، وخلق الانسان خاصة، أي النظر في مظاهر الكون التي خلقها الله تعالى، ثم النظر في خلق الانسان، من خلال تذكر (العلقة) وهي الدم الجامد ((تنبيهاً على ما فيه من اتقان الصنعة ووجوه الحكمة))[٢].

وخُصَّ الانسانُ بالذكر هنا - فضلاً عمّا ذكر - تشريفاً له، لأنه هو الذي يتدبر بعقله مظاهر الكون التي خلقها الله تعالى، ويجمعها إلى بعضها ليرى دقة خلقها، وهنا يتحقق معنى (الجمع) الذي أمدّنا به المعجم، بوصفه معنى من معاني القراءة - كما مرّ -.

أما القراءة الثانية في هذا النمط، فيمثلها الفعل (اقرأ) في ((اقرأ وربك الأكرم))، إذ ترتبط هذه القراءة بالعلم الذي علّمه الله تعالى ويعلّمه بما يكتبه القلم. وهذا الضرب يبتعد عن الضرب الأول من القراءة إلّا في الميدان، فالأول قراءة الوجود كما يراه الانسان بحواسه ومن ثم بعقله، والثاني قراءة الوجود كما يصوره القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيّه الأكرم ﷺ، بلطفه وكرمه يقول الشيخ الطوسي ((... معناه اقرأ القرآن، وربك الأكرم،... امتنَّ على خلقه بما علّمهم من كيفية الكتابة بالقلم، لما في ذلك من كثرة الانتفاع لخلقه))[١٥].

واستناداً إلى هذا التوجيه فإننا نقفُ مُنكرين للروايات التي تجعل الوحي يفاجئ النبي ﷺ في غار حراء، بآيات سورة العلق المشار إليها، مثل هذه الرواية التي تقول ((... حتى فجئه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: إقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما انا بقارئ، فأخذني، فغطّني الثانية... ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلتُ: ما انا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة... ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق...))[١٦].

أمعقولٌ أنْ يفاجئ رسول الله ﷺ بالوحي، وهو يجاور في غار (حراء) شهراً كلّ عام، يتعبّد الله تعالى، وينتظر كرامة النبوة، بعد أنْ كانت الرؤيا الصادقة تمهيداً لما ينتظره[١٧]. فما عدّته الرواية مفاجأة اذاً، يمكن أن نعدّه استبشاراً - وهو كذلك إن شاء الله - بالوحي والقرآن الذي ينتظره النبي ﷺ وأمر عظيم ينتظر سنين طويلة، يستبشر به صاحبه ﷺ ويتفاجئ به. لأنّ (فجأ) تعني ما جاءك بغتة من غير تقدم سبب، وكل ما هجم عليك من أمر لم تحتسبه فقد فجأك[١٨]. وهذا كلّه لا يتسق مع ما قدمناه من مجاورة النبي ﷺ في حراء.

بيد انّ نصّاً آخر لرواية نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء، يعاضد تصورنا الذي بسطناه بشأن مفهوم القراءة في سورة العلق، وهو قول النبي ﷺ لجبرائيل عليه السلام بعد أن طلب منه أنْ يقرأ ((... ما أقرأ، ما أقول))[١٩]. مستفهماً عن نمط القراءة، فلما قرأ الملك الآيات المباركات، تبيّن منها نوع القراءة، وهي القراءة التي أشرنا إليها بنمطيها الأول والثاني.

٢- النمط الثاني من القراءة، وهو الوارد في سورة الاسراء في قوله تعالى ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[٢٠]. وهذه القراءة تقع خارج الاطار البشري، إذ لا دخل للإنسان بها، وإنما هي قراءة في عالم المطلق، قراءة عند الله تعالى، وهذا ما لا يمكن تصوّره على الحقيقة، لأنّ قراءة

الانسان لكتابه أمام الله سبحانه وتعالى - يوم القيامة، لا يمكن ادراك كنهها إلّا بما عندنا هنا في الدنيا، وهي هناك في الآخرة.

وتندرج قراءة الملائكة لكتاب من يحمل كتابه بيمنه، مع هذه القراءة في بُعد التصوّر، وخفاء الكنه. وإن كان ما عندنا - كما أشرنا - يقرّبها إلينا.

٣- النمط الثالث من القراءة القرآنية، وهو الوارد في قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾[٢١] ، وقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٢٢].

وهذه القراءة يعلّمها الله تعالى لنبيّه ﷺ ولا يمكن هنا تصور هذه القراءة أيضاً، إلّا بمقدار ما يظهره النبي ﷺ للمسلمين منها، وبمقدار ما يعلّمه لمن اختصّ بعلمه من الذين يعلمون تأويل القرآن الكريم، بحسب مضمون الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿. . . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، وفي الأحوال كلّها، فهذه القراءة، قراءة تعليم وبيان وحفظ، ولا دخل للإنسان بها. وهي من الله تعالى - خصّ بها نبيّه ﷺ، وهي تعني (استعداداً لتشكّل جديد للمعنى، على وفق القراءة (ثالثاً) في الاستعمال الاجتماعي للجذر (قرأ)، إذاً الله سبحانه وتعالى يُخبر نبيّه ﷺ، انّه يعلّمه هذا القرآن ويجمعه له ويحفظه عليه، يقول عن معنى الآية في سورة الأعلى (سنقرؤك فلا تنسى): ((... اخبار من الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أنّه يعلّمه هذا القرآن ويحفظه عليه))[٢٣].

أما في سورة القيامة ((فإذا قرأناه فاتبع قرآنه))، فهذا نمط آخر من القراءة، خصّ الله تعالى به النبي ﷺ، لأنّ القراءة هنا تعليم وبيان وكشف وجمع[٢٤] ومن ثم توجيه للنبي ﷺ باتباع ذلك كلّه.

إنّ هذا البيان الواضح في هذه الآية الكريمة لمعنى القراءة في عالم المطلق، يجعل أقوال المفسرين أقرب إلى التخمين منها إلى التأويل المستمد من معطيات

اللغة، باستثناء ما تقدمه الروايات من تفسير لهذا المعنى، وهي لم تقف على معنى محدد لدلالة القراءة، فهي تعني عندهم المعاني الآتية:

الحفظ والتأليف[٢٥] والجمع والاثبات[٢٦]، والتلاوة[٢٧] واتمام القراءة[٢٨]، وهذه المعاني كلّها قد لا تتوافق مع سياق الآية المباركة تماماً ((فإذا قرأناه...)) لأنّها في عالم المطلق، فالأولى اذاً أنْ يوجه المعنى إلى ما يتوافق مع السياق بشكل أقرب.. وهو انّ هذه القراءة لا دخل للإنسان بها. وإنما تخصّ النبي ﷺ ويُعطي منها للراسخين في العلم، لأنّهم هم المعنيّون بتأويل القرآن الكريم بحسب الآية السابعة من سورة آل عمران.. وهذا ما رجّحناه فيما سبق استناداً إلى المنهج الذي تبنيناه بالعودة إلى المعجم بوصفه أصلاً معرفياً.

٤- وضرب آخر من القراءة، تكشف عنه سورة الإسراء في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٢٩]، وقوله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[٣٠].

وهذه قراءة النبي ﷺ، فهي قراءة لها وجود، يسمعها المسلمون، إذا كانت بمعنى اظهار الصوت في القراءة، ويتفهمونها إذا كانت بمعنى البيان والفهم للمسلمين. يؤيد هذا إنّ الحجاب الساتر الوارد ذكره في الآية المباركة نفسها، منع الذين لا يؤمنون بالآخرة من سماع القرآن أو فهمه، أو رؤية النبي ﷺ س، وهو يقرأ القرآن، كما في حادثة (أم جميل) زوج أبي لهب، التي جاءت إلى النبي ﷺ تُعاتبه، ولم تره وهو أمامها[٣١].

٥- أما النوع الخامس، فهو قراءة أهل الكتاب، والمشركين، وبعض الأعجمين. وقراءة أهل الكتاب هنا في كتبهم في قوله تعالى ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٣٢]. فمعنى القراءة هنا، إن أهل الكتب من الديانات الأخرى

قرأوا في كتبهم. عن نبوة النبي ﷺ فالقراءة هنا بيان وكشف ومعرفة، لأنّ أمر النبي ﷺ كان واضحاً بيّناً ظاهراً عند أهل الكتاب(٣٣).

أما قراءة المشركين، فتتمثل في رغبتهم بأن ينزّل الله تعالى عليهم كتاباً من السماء ليقرؤه، وهذه قراءة تصوّرية، إذ لم ينزل الكتاب ولم يقرؤه، قل تعالى ﴿... حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٣٤).

ثم تأتي قراءة بعض الأعجمين في قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾(٣٥) ، وهنا لو نزّل الله تعالى القرآن على بعض الأعجمين، وقرأه لا يمكن أنْ يؤمن به العرب، لأنّ هؤلاء لا يفصحون ولا يحسنون القراءة على وفق ما تقتضيه اللغة العربية، من حيث سلامة اللسان والنطق والاستعمال المطّرد، فضلاً عن سلامة التدبر والتفكير، لأنّ من لا يحسن اللغة، لا يحسن التفكير أو التدبر بها.

إنّ هذه الأنماط الخمسة من القراءة في القرآن الكريم، جاءت مداليل للفظة (قرأ) في المعجم العربي، وهي مداليل تنتمي إلى (حقل واحد) وهذا الحقل الدلالي يُغرينا بالنظر إلى معاني القرآن، وتفسيرها على وفق المعاني الجزئية التي تشكل المعنى العام، أو التي يتفرع إليها هذا المعنى، وهذا هو لبّ ما قام عليه البحث واستند إليه. إذ أفضى إلى وجوه معرفية، أُستمدت من دلالات الألفاظ الثابتة، التي تحرك ثبوتها بعد استعمالها الاجتماعي، ثم استعمالها القرآني، وتغيّر استعمال الألفاظ في السياقات يعني خلق استجابات متغيرة جديدة عند المتلقين، واستقبال المتلقين للألفاظ في سياقاتها يختلف أيضاً بحسب ما يمتلكون من أدوات معرفية، وبحسب قدرات كل واحد منهم، وإدراكه للنص.

ويبقى أمرٌ على قدرٍ من الأهمية يستحق أن نشير إليه، وهو إن بعض معاني الجذور قد لا تتسق مع سياق الآيات التي ترد فيها، فكيف يتم التوفيق بين هذا

وبين المنهج المقترح؟، وهنا نجيب بالآتي:

إننا نأخذ من المعاني ما يمكن أن يرتبط بصلة نسب مع السياق، أمّا إذا خالف معنى المفردة في الجذر، سياق الآية أو جنح به الى المخالفة، فهنا نعفي أنفسنا من أخذه، ونعفيه من منهجنا، لأن الأصل الذي توخيناه هو استنباط بعض المعاني القرآنية التي - ربما - لم يُلتفتْ إليها من قبلُ، أو أُلتفتَ إليها ولكن صرامة التمسك ببعض الروايات من قبل المفسرين حالت دون النظر إليها، ونأخذ شاهداً واحداً على ما نقول وهو ما فُسِّر به معنى (الرهب) في قوله تعالى ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ...﴾:

ذهب أغلب المفسرين إلى تفسيره بالخوف[٣٦] أو اليد أو العضد[٣٧]، ولكنّ علماء اللغة وفي مقدمتهم الأزهري، تناغموا مع معرفتهم اللغوية، ومالوا إلى الأخذ بالدلالة اللغوية التي تُجيزها بعض معاني الجذر (رهب)، من دون أن يتنكّروا لما ذهب إليه المفسرون، فالأزهري مثلاً لم يخفِ حيرته في هذه القضية فقال ((... وأكثر الناس ذهبوا في تفسير قوله (واضمم جناحك من الرهب) أنه بمعنى الرهبة، ولو وجدتُ اماماً من السّلف يجعل الرهب كُمّاً لذهبت إليه، لأنه صحيح في العربية، وهو أشبه بسياق الكلام والتفسير والله أعلم بما أراد))[٣٨] ، فالأزهري هنا يُرجّح المعنى اللغوي على المعنى التفسيري الوارد عن السلف. وهذا وفاءٌ منه لثقافته اللغوية التي أعانته على تمثل المعنى القرآني، بعد أن استعان بدلالة (الرهب) على (الكُم)، لأنّ السياق أغراه بتبنّي هذا المعنى، حتى خُيّل إلينا أنّ في قوله السابق ما يشي حقاً بتمرده على تفسيرات السلف. وهذه الجرأة العلمية ولّدها الإدراك العميق لما يمكن أن تؤديه الدلالات المعجمية في بيان المعنى القرآني. وهذا أشعرنا به أيضاً ابن منظور، حينما نقل كلام الأزهري بتمامه مع ميل إليه لم يشأ إخفاءه[٣٩].

بيد أنّ الراغب الأصفهاني، كان أكثر ميلاً إلى أقوال المفسرين في بيان دلالة

لفظة (الرهب)، على الرغم من أن كتابه أقرب إلى التفسير اللغوي، وعلى الرغم من أنه - أيضاً - أورد رواية تجعل دلالة (الرهب)، الكُمَّ، يقول ((قال مقاتل: خرجتُ التمس تفسير الرَّهب، فلقيت اعرابية، وأنا آكل فقالت يا عبد الله: تصدق عليَّ، فملأت كفي لأدفع إليها، فقالت: ها هنا في رهبي أي كُمي))[٤٠].

والذي يمكن أن نستنبطه من هذه الرواية، أنَّ معنى (الرهب)، كان معلوماً عند مقاتل، ولكنه خرج يلتمس معنى آخر يكون أكثر إتساقاً مع السياق، كما أشرنا، ووجد المعنى وصرّح به، ولكنّه آثر ترجيح ما قال به المفسرون، من دون أن يمنعنا من تحسّس ما شكّل هاجساً له، وإلّا فما مسوّغ البحث عن معنى آخر لهذه المفردة، إذا كان مطمئناً تماماً إلى دلالة الخوف أو الفزع الذي قال به من سبقه[٤١].

الخاتمة:

وفي الختام، فقد بيّن هذا المنهج الذي تكفّل هذا البحث بالابانة عنه، قدرته على الكشف عن معانٍ أخرى للنصوص القرآنية، لم يترض لها المفسرون، وإن تعرضوا لها، فرغبة منهم في تضعيفها، لأنها لا تتلاءم مع مناهجهم في الأخذ عن السلف وترجيح ذلك على ما تسمح به الدلالات اللغوية، ومهما يكن من أمر، فليس بمقدور أيّ مفسّر - أن يقول ان ما فسّر به هذه الآية أو تلك، هو ما يحتمله النص فقط لأن النص القرآني ((حمّال ذو وجوه)) على وفق وصف الإمام علي عليه السلام.

واستناداً إلى ما تقدم فإن ما نريده هنا، يبقى محاولة للكشف عن بعض ما في النص القرآني من دلالات، شاء الله تعالى أن لا تنتهي، لأنها من أسرار اعجازه الخالد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هوامش البحث

(١) ينظر مقدمة الاتقان ١/١٨-٣٣.

(٢) ينظر مثالاً لا حصراً: يوسف ٢، الرعد ٣٧، النحل ١٠٣، طه ١١٣، الشعراء ١٩٥، الزمر ٢٨، فصّلت ٣.

(٣) نعني هنا ما جاء به عبد القاهر الجرجاني في (نظرية النظم) التي نظّر لها في كتابيه المذكورين، إذ رأى إنَّ اعجاز القرآن يكمن في نظمه.

(٤) البرهان ٢/٣٠.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٨/٧١.

(٦) البرهان ١/٢٣.

(٧) نهج البلاغة ١/٥٥.

(٨) وجدنا في شبكة المعلومات العالمية (الانترنيت) مثل هذا العنوان، ولكن لا علاقة له بتوجهنا الذي نتبنّاه هنا. والذي سيتبيّن من خلال الدراسة التطبيقية في صفحات البحث، ينظر www.alfusha.net.

(٩) الاتقان في علوم القرآن ٢/٦٧.

(١٠) دلائل الاعجاز ٢٠٣.

(١١) مسند أحمد ١/٢٣٣، سنن الترمذي ٤/٢٦٨، المصنّف ٧/١٧٩.

(١٢) ينظر لسان العرب مادة (قرأ).

(١٣) العمدة ١/١٥٢.

(١٤) الشعر والشعراء ١/٩٠.

(١) العلق ١ـ٥، ونشير هنا إلى توجيه متين، وجه به الباحث عباس أمير، هذه الآيات من سورة العلق، ينظر المعنى القرآني بين التفسير والتأويل ١٤٧ـ١٥٠.

(٢) التبيان ١/٣٤..

(١٥) م. ن ١٠/ ٣٧٩.

(١٦) ينظر صحيح البخاري ٦/٨٨، ٨/٦٧، فتح الباري ٨/٥٥٢.

(١٧) تاريخ الطبري ٢/٤٨، شرح نهج البلاغة ١٣/٢٠٨.

(١٨) لسان العرب (فجأ).

(١٩) تاريخ الطبري ١/٥٣٢، عيون الأثر ١/١٦٥.

(٢٠) الاسراء ١٤.

(٢١) الأعلى ٦.

(٢٢) القيامة ١٨.

(٢٣) تفسير الطبري ٣٠/١٩٢.

(٢٤) ينظر الميزان ٢١٤/١٤.
(٢٥) تفسير القرآن (الصنعاني) ٣٣٤/٣، تفسير الطبري ٦٦/١.
(٢٦) مفردات غريب القرآن ٤٠٢، تفسير ابن كثير ١٧٥/٣.
(٢٧) التبيان ١٨/١.
(٢٨) الميزان ١١٠/٢٠.
(٢٩) الاسراء ٤٥.
(٣٠) الاسراء ١٠٦.
(٣١) تنظر تفاصيل الحادثة في مسند أبي يعلى ٥٤/١، دلائل النبوة ٧١، مجمع البيان ٤٧٧/١٠.
(٣٢) يونس٩٤.
(٣٣) ينظر الميزان ٣٢٧/١.
(٣٤) الإسراء٩٣.
(٣٥) الشعراء ١٩٨، ١٩٩.
(٣٦) ينظر جوامع الجامع ٧٤٠/٢، تفسير القرطبي ٢٨٣/١٣.
(٣٧) ينظر تفسير ابن كثير ١٥٣/٣، تفسير الثعالبي ٣٧٤. وينظر خلاصة لهذه الآراء في الميزان ٣٣/١٦ - ٣٤.
(٣٨) تهذيب اللغة ٢٩٢/٦.
(٣٩) ينظر لسان العرب (رهب).
(٤٠) المفردات ٢١١.
(٤١) تنظر الروايات في هذا في تفسير الطبري ٩٠/٢٠-٩١.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢- الأزمنة والأمكنة، المرزوقي (ت ٤٢١ هـ)، در الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

٣- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق هـ. ريتر، ط٢، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، ١٩٥٤م.

٤- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٦هـ - ١٩٧٥م.

٥- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٦- التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة مكتب الأعلام الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ.

٧- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، الطبري (محمد بن جرير ت ٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٨- تفسير الصنعاني (عبد الرزاق بن همام الصنعاني)، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض.

٩- تفسير الطبري (الجامع في تأويل القرآن)، الطبري (محمد بن جرير ت٣١٠هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٠- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١١- التفسير اللغوي، الدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، ط١، رجب ١٤٢٢هـ.

١٢- تهذيب اللغة، للأزهري (محمد بن أحمد الأزهري ت ٣٧٠هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، علق حواشيه محمد رشيد رضا، الناشر مكتبة القاهرة، مصر، ١٣٨هـ-١٩٦١م.

١٤- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي (أحمد بن الحسين ت٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٥- سنن الترمذي (الجامع الكبير)، الترمذي (محمد بن عيسى ت٢٧٩هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

١٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة المرعشي النجفي.

١٧- الشعراء والشعراء، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

١٨- صحيح البخاري، البخاري (محمد بن اسماعيل البخاري ت)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني ت ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

٢٠- عيون الأثر، ابن سيد الناس ت٧٣٤هـ، تحقيق إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، أخرجه وصححه محب الدين الخطيب، منشورات دار المعرفة.

٢٢- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (الفضل بن الحسن ت٥٦٠هـ)، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٥هـ - بيروت، لبنان.

٢٣- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٤- مختصر الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، اختصره محمد بن الموصلي، نشر دار الندوة الجديدة، بيروت.

٢٥- مسند أحمد، أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٦- مسند أبي يعلى (أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي)، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٧- المعنى القرآني بين التفسير والتأويل، عباس أمير معارز، اطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٧م.

٢٨- مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨ م.

٢٩- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ت١٤٠٢هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم، إيران.

٣٠- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح الشيخ محمد عبدة، دار المعرفة، بيروت.

٣١- شبكة المعلومات العالمية (الانترنيت) www.alfusha.net.